سينما

ماهر أبي سمرا رأى كابوس الحريرية منذ 1995

رغم مرور 20 عاماً على هذا الشريط، إلا أنّه يزداد راهنيةً مع الحال التي وصل إليها اللبنانيون. هو بمثابة رؤية استباقية لحاضرنا. حيث يعود المخرج إلى بداية تشكل العنف البيئي والبصري والسمعي الذي تلا الحرب الأهلية. «الحملة الأهلية للحفاظ على دالية الروشة» تدعونا لمشاهدته هذا المساء في «مسرح المدينة»

بانة بيضون

نتساءل اليوم كيف وصلنا إلى هذه الحالة حيث بتنا نخاف من الهواء، ومن كل ما قد يسرّع حركة جبال النفايات المتراكمة التي تزحف ببطء صوبنا، حاملة معها صوراً مرعبة قد لا يكون أسوأها الكوليرا، بل يمكن أن تبتلعنا هذه النفايات، أو نظل نتنشّقها حتى تدخل في جلدنا ونتماهى معها إلى أن نصبح وإياها سواسية! في هذا الإطار، تدعو «الحملة الأهلية للحفاظ على دالية الروشة» إلى عرض وثائقي «إعمار على الموج» (1995 ـ 26 د) للمخرج اللبناني ماهر أبي سمرا وألدو بنكاري، وجيروم ألامارغو، بالشراكة مع جمانة بعلبكي مساء اليوم في «مسرح المدينة».

في فيلمه الوثائقي، يعود بنا ماهر أبي سمرا إلى بداية تشكل العنف البيئي والبصري والسمعي الذي تلا الحرب الأهلية. الشريط هو بمثابة رؤية استباقية للحاضر. جذور المشكلة كما يرصدها ماهر أبي سمرا تبدأ مع إعلان نهاية الحرب، والترويج لموجة إعادة الإعمار الذي كان بمثابة مشروع مشترك بين زعماء الحرب الأهلية الذين تسلموا الحكم، وغيرهم ممن دخلوا على الساحة للشروع في نهب البلد وتسميمه تدريجاً على جميع المستويات. لم يوفّر هؤلاء الأرض ولا السماء ولا حتى البحر من براميل النفايات السامة. وصل بهم الأمر إلى سرقة الصخر من الجبال والرمل من شاطئ صور، وسببوا زيادة في حالات الغرق والتلوث الصناعي في شكا وتهديد أمن السكّان. امتد هذا التلوّث إلى البحر، وكان من أثره القضاء على كل الثروة السمكية، وصولاً إلى أزمة الكهرباء، والماء والتلوث البيئي والسمعي من أثر الموتورات والآبار الأرتوازية.

بداية، ينطلق المخرج في بحثه من فضيحة براميل النفايات السامة التي صدّرتها إيطاليا إلى لبنان بين 1987 و 1988 إثر صفقة عقدتها مع القوات اللبنانية. ويقدَّر عدد البراميل يومها بـ15000. لكن بعد كشف الفضيحة، استُعيد 6000 برميل فقط منها، وفق فؤاد حمدان، ممثل منظمة «غرين بيس»، في حين أنّ البراميل الباقية ما زالت موزعة بين الجبال والبحر. يجول المخرج بعدسته بين جبال النفايات المتراكمة في البحر التي تتهادى ببطء مع الموج، إلى شرائط الكهرباء المتشابكة كالمتاهات بين تجمعات الأبنية المكدسة عشوائياً كمكعبات الليغو التي تهدد حتى أمن الطيران. هذا ما حدث في مسبح الكوستا البرافا حيث اصطدمت إحدى الطائرات بطبقاته العليا في لقطة تجسد سوريالية الوضع، وصولاً إلى الشاحنات المحمّلة بصهاريج الماء بهدف بيعها. «يزرب» الماء على أسطحها المعدنية الصدئة والملوثة كما يصور المخرج على نحو متقطع يجسد الحالة العامة من السأم والصدأ التي يغرق فيها البلد. حتى الصيصان لم تسلم من موجة التلوث كما نرى في إحدى اللقطات الطريفة حين يصور المخرج قفصاً من الصيصان الملونة، إحدى الصيحات الغريبة التي كانت منتشرة حينها، وشاركنا للأسف في تعذيبها نحن أطفال جيل الثمانينيات. إنّها رؤية سوداوية وسوريالية في آن واحد، يرسمها المخرج معتمداً على جمالية بصرية تصور حالة الاختناق التي تعيشها المدينة بالتناقض مع مشاهد الموج الذي يتهادى برومنسية وببطء بجانب أكوام الزبالة، ووحش الشفاط الذي يلتهم جوف البحر. عبر السخرية الذكية، يجسد أبي سمرا عجلة إعادة الإعمار التي ليست سوى مشروع إعادة طمر البلد بسكانه إلى جانب نفاياته.

> يجسد عجلة إعادة الإعمار التي هي مشروع لإعادة طمر البلد بسكانه إلى جانب نفاياته

بعدما فرغوا من تدمير البلد، واستنزاف الدم البشري، اتجه زعماء الحرب الأهلية إلى نوع آخر من العنف المنظم والمشروع بعد تبوئهم مناصب حكومية هو نهب الطبيعة كما المواطن، والتسميم التدريجي الذي يشبه في أثره المخدِّر حركة الموج حتى يختنقا سوية. خلال بحثه، يصوّر المخرج شهادات مختلفة من السكان في شكا أو صور. بعضهم لا يجرؤ على تسمية الجهة المسؤولة عن سرقة الرمل بعد وصولها إلى الحكم. كذلك، يجري أبي سمرا مقابلات مع شخصيات مختلفة منها الصحافي جورج ناصيف من جريدة «النهار». يختتم بالحديث عن مشروع إعادة إعمار وسط البلد الذي أطلقه الشهيد رفيق الحريري. لا يبدو أنّ هذا ما يحتاجه البلد في ظل الوضع الاقتصادي المتردي، ما يهدد بتعميق الشرخ الطبقي. بعد مرور نحو 20 عاماً، تحول شريط ماهر أبي سمرا إلى وثيقة مهمة وشفافة تساعدنا في فهم الوضع الراهن. لا يمكن المشاهد الذي لم يبتلعه التلوث البيئي والسمعي والبصري والطائفي بعد، إلا أن ينتفض على مشروع إعادة طمره الذي ما زال مستمراً. قد تكون الوطنية كلمة كبيرة ومبهمة، لكنها قد لا تتعدى اليوم الشعور بضرورة استرداد هذا البلد أو قطعة الأرض التي نقطنها من قبضة كارهي الحياة الذين يقبضون على حياتنا.

«إعمار على الموج» لماهر أبي سمرا: 20:00 مساء اليوم ـ «مسرح المدينة» (الحمرا ـ بيروت). للاستعلام: 01/753010

غياب

عبدالرزاق عبدالواحد... «شاعر القادسية» رحل من دون اعتذار

بغداد ـ **حسام السراي**

أمس، رحل الشاعر الرائد عبد الرزاق عبد الواحد (1930- 2015) في باريس، والسجال العراقيّ بلا هوادة، بين محبّ لنبوغته الشعريّة وإمكانياته في توظيف بحور الشعر، عبر نتاج طويل صدح به وأطرب متذوّقيه، وبين ناقم على تمجيده لصدّام وعدم اعتذاره عن هذا الفعل. هنا برز الرأي الباحث عن مكاشفة عقلانية مع الماضي برفض فصل الموقف الثقافي المسؤول عن مستوى الريادة الشعريّة. والراحل كان بعيداً عن مراجعة الذات والإقرار بأنّه كان إلى جانب حاكم سيظلّ العراق ضحية أخطائه التي دفع بسببها أثماناً باهظة.

لم يحاول الراحل فتح صفحة جديدة مع نفسه ومع الحاضر، إضافة إلى أنّ العقل السياسيّ العراقيّ في عراق ما بعد صدّام كان طارداً

> وفاته تؤكّد مجدّداً حقيقة انقسام المجتمع العراقيّ

ليس فقط لمن يختلف معه سياسيّاً، بل لمن بقي في البلاد أصلاً ودافع عن التجربة الجديدة التي خيّبته مضامينها، عبر جمع من الساسة الشيعة والسنة والكرد، ممّن خرّبوا الحياة، حيث قسم منهم مشغول بتحويل ملايين الدولارات إلى الخارج، وقسم آخر وجد نفسه تائهاً أمام سؤال: كيف بسلطة ليست لي بالكامل؟ فدخلت إلينا من بوابة هذا الاستفهام جماعات أصولية وإرهابية آخرها «داعش».

كان صعباً على شاعر بليغ مثل عبد الرزاق عبد الواحد فهم ذلك كلّه، يوم وظّف شعره من أجل شخص رآه مثالاً لفروسية البطل القوميّ. لنا أن نذكر من سيرته فوزه بوسام «بوشكين» العام 1976 و«لوح جامعة كامبريدج» 1979 وميدالية القصيدة الذهبيّة في «مهرجان ستروكا الشعري» في يوغسلافيا 1986. ويجدر بنا إزاء مطالبات سابقة للشاعر بأن يدفن في أرض العراق، أن يدعم الوسط الثقافيّ هذا المطلب بدعوة الحكومة العراقيّة لإتمام الإجراءات، من باب التسامح الغائب في راهننا الحالي. نتبنّى ذلك ونحن نتذكّر اللقب السلطوي الذي حازه: «شاعر القادسية»، وترزح تحت هذا التوصيف آلاف الجماجم.

لكنّ وفاة الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد، تؤكّد مجدّداً حقيقة انقسام المجتمع العراقيّ على نفسه، نخباً وساسة وأبناء وطن ملتهب يتوزّعون بين الداخل والخارج.

بعد أيّام على وفاة زعيم سياسيّ عراقيّ، تحوّلت مناسبة رحيله إلى شتم وتجريح لحق بعائلته وانتمائه الطائفي، في حالة تشير بوضوح إلى مستوى الأمراض الاجتماعيّة التي يكشفها لنا الفايسبوك متفضّلاً. نعم يصح أن نشخّص أخطاء هذا الزعيم، ومثالنا هنا أحمد الجلبي، وأن نرتقي بطرح تقييمنا المتباين لإسهامه في التراجع الذي أصاب البلاد بعد نيسان 2003 أو قراءة سيرته الطويلة وشخصيته التي لا بأس بأن نختلف في رؤيتنا لثقلها السياسيّ وقيمتها الارستقراطيّة في محيط تتّسع فيه الرثاثة، لكنّ شتم الميت ينمّ عن انحطاط أخلاقيّ مؤسف تتّصف به مجاميع من شعب الحضارات!

اليوم يتكرّر المشهد نفسه: ممجّدون قبالة شتّامين، في مباراة مفتوحة اسمها الآني عبد الرزاق عبدالواحد، ستنتهي فورتها ربّما بعد 48 ساعة، بمجيء خبر جديد عن وفاة أخرى أو تقليص حكومي لرواتب، تنسينا مباشرة دفاعنا المستميت عن الراحل أو نسفنا لمحطّات حياته، وهو الأب والزوج والحبيب لأناس يطالعون هذا العرض المستمرّ من الحداثة الهمجيّة في طبعتها الفايسبوكية.

محزن ما نمرّ به، ومؤسف ما نحن فيه. فعل الكراهية الظاهر بيننا يعادل أثره تفجير عشر سيّارات ملغمة وانتحاريّين بين الأبرياء.

ارحمونا من هذه الكراهية التي سوّدت أيّامنا ووجوهنا.